الملامح الأسطورية
في رواية الحمار الذهبي لـ أبوليوس لوكيوس

كـريدات حـورية/ CRASC وهران

****

المولج[*]:

يشكّل الإبداع بصفة عامّة، في جميع الأشكال الفنية وعياً فرديا يتشكّل من خلال الرؤى الفكرية ومشارب ثقافية مختلفة، وهذا الوعي يؤسس لتجربة شخصية رؤيوية عميقة، تنطلق من معاناة الذات المبدعة لتصبّ في التجارب الإنسانية، حيث تشارك في الوعي الجمالي للإبداع.

فالطاقة الإبداعية للعمل الأدبي تكسبه خلقا فريدا من الدلالات والوظائف، وكذلك الرموز التي نجدها في بعض النصوص تعتمد الزمن الأسطوري أو المغامرة الأسطورية، وهذا ما لمسناه في رواية **الحمار الذهبي** أو رواية التحول لـ **أبوليوس**، التي تحمل طابعا أسطوريا في بنيتها الحكائية وفي بعدها الإنساني.

إنّ الأسطورة هي ذلك الشيء الذي يقدّم تشابكا عقليا وشعوريا في لحظة من الزمن[1]، وتعطينا ذلك الإحساس بالوحدة بين المنظور والغيبي، بين الحي والجامد، وبين الإنسان وبقية مظاهر الحياة والنظام الذي تخلقه الأسطورة فيما بينها [2]، فنظام الأسطورة الخاص لبنيتها يحكمه منطق المغامرة ومنطق التحوّل الذي يزيد من ثراء الأسطورة وعجائبيتها.

---

[*] - Abstract :Summary: Mythical features in the novel The Golden Ass by "Apuleius": "The Golden Ass" is considered to be the first novel or the first literary document in human history, which included forms of literature that were represented in stories, theater, and poetry. The mythical aspect distinguished it and controlled its path which gave it a beautiful and imaginary dimension. The reincarnation or the shift which got into the structure of the novel changed the events because of the protagonist's desire of shifting to a bird, but the opposite happened, he became a donkey. This incident revealed an existing flaw in the human nature and an imbalance between the stable and the variable in the accountability of the human conscience .Apuleius used the structure of the myth, which served the novel's idea, so he could disclosure shape shifting, magic and supernatural transitions in the novel.

Key Words: Myth - narrative structure – golden ass – supernatural – tronsformations

[1] - عماد الدين الخطيب، الأسطورة معيارا نقديا دراسة في النقد العربي الحديث، د ط، د تا نسخة PDFص:43

[2] - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط 1، 1997، ص: 21.

كما لها منطق آخر، فالأسطورة هي أيضا قصة تحكمها مبادئ السّرد القصصي؛ من حبكة وعقدة وشخصيات، ناتجة عن الخيال المشترك للجماعة، حيث تلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسة فيها، بحيث تجري أحداثها في زمن مقدس غير الزمن الحالي، تتمتع فيه بسلطة قدسية على عقول النّاس ونفوسهم، وهذا ما جعل بعض الباحثين يُعرّفونها على أنّها قصة الأعمال التي يقوم بها أحد الآلهة في العقائد القديمة أو إحدى الخوارق الطبيعية[1].

1. الحمار الذهبي:

"الحمار الذهبي" أو "التحوّلات" هي ثاني روايتين خلّفهما "لوكيوس أبوليوس" في الأدب اللاّتيني، أحد أشهر كتّاب القرن الثاني[2]، حيث تميّزت هذه الرّواية بامتزاج أساليب شتّى؛ من تشويق وفكاهة وإثارة جنسية ورعب وفظاعة وفخامة وجلال، ولها كذلك قيمة تاريخية في معرفة الديانات المنتشرة في الإمبراطورية الرومانية في ذلك العصر.

بطل رواية الحمار الذهبي "لوكيوس"، وهو شاب يسكنه الفضول وحبّ المغامرة، يتورّط بسبب فضوله هذا في التحوّل إلى ما لم يكن يرغب فيه. وهذا التحوّل يجعل من لوكيوس يتمنّى الخلاص من ورطته التي وقع فيها بسبب الخطأ الذي ارتكبه.

يتحوّل لوكيوس إلى حمار، لكنّه يظلّ محتفظا بقدراته العقلية، وقد قلّبته الصدف – وفق رؤية الكاتب -بين أيدٍ شتّى، حيث شارك من خلال تنقلاته في عدّة مغامرات ومشاهد مختلفة، حتى تلك التي سمع عنها.

تصف الرواية، في أسلوب غلب عليه الطابع الهزلي، معاناة الحمار على أيدي الناس صغارهم وكبارهم، لكن ثمّة قرائن عديدة تحمل على الاعتقاد بأنّ أبوليوس أراد من خلال مغامرات حماره الممتعه تبليغنا رؤيته الأفلاطونية[3].

2. تجلّي العناصر الأسطورية في الرواية:

[1] - آيت سعيد آسيا، التوظيف الأسطوري في الشعر القبائلي، آيت منقلات أنموذجا، مجلة مطارحات في اللغة والأدب، العدد 03، مارس 2011، ص.111.

[2] - من مقدمة المترجم، الحمار الذهبي، لوكيوس أبوليوس، تر: عمّار الجلاصي، ص: 4.

[3] - لوكيوس أبوليوس، المرجع نفسه، ص: 4-5

إنّ هذا الكتاب هو قصة طويلة، تسرد لنا مغامرة الشاب لوكيوس الذي يسكنه الفضول وحب الاستطلاع، يغادر مدينة **كورنث** متوجها إلى **ثيساليا** [1]، وفي طريقه يلتقي برجلين يسمع من أحدهما حكاية عجيبة حول الأعمال السحرية، وهذا ما أثار فضوله، وحينما وصل إلى مدينة هيباتا نزل ضيفا عند رجل غني، لكنّه بخيل يُدعى **"ميلو"** وقد التقى، عند وصوله، بقريبة لأمّه قد حذّرته من الأعمال السحرية التي تمارسها زوجة "**ميلو**"، وهذا التحذير زاد أيضا من فضول **"لوكيوس"** لمعرفة طقوس السحر التي تمارسها **"بامفيلا"**، وخاصة بعدما خلّصته من تهمة قتل اللّصوص الذين هجموا عليه، وبعد المحاكمة تبيّن أنّها ليست جثثا، بل هي ثلاثة قِرَب مملوءة بالماء، وبهذا قد نجا من التهمة التي سجن بسببها.

يحاول **"لوكيوس"** التقرب من خادمتها **"فوتيس"** والتودّد إليها، لتمكنّه من التّعرف على تلك الطقوس والقوى الخارقة والغامضة في الأعمال السحرية. وقد تحقق مراد **"لوكيوس"** ومكّنته الخادمة من الوصول إلى المكان الخفي، حيث استطاع أن يرى **"بامفيلا"** وهي تقوم بدهن المرهم على جسدها فتتحول إلى بومة.

تتملّك **"لوكيوس"** رغبة شديدة في أن يعيش تجربة التحوّل إلى طير، ويطلب من فوتيس أن تحضر له ذلك المرهم، فتنجح في إحضار المرهم إلاّ أنّها أخطأت في العلبة المطلوبة، وأعطته مرهما غيره. فلمّا دهن لوكيوس جسده بالمرهم الذي جلبته إليه الخادمة تحوّل إلى حمار باستثناء عقله الذي بقي عقل إنسان، فوجد نفسه حبيس ورطة جرّه إليها فضوله.

وعدته الخادمة بأنّها ستحضر له وردا في الصباح ليعود إلى طبيعته الأولى، لأن علاج التحوّل هو قضم الورد، لكن من سوء حظ **"لوكيوس"**، هجم اللصوص على الإسطبل ليلا، وسيق الحمار مع المسروقات. ومن هنا، تبدأ الرحلة الساخرة "التي عاشها **لوكيوس/** الحمار، ضمن مغامرة مثيرة، تجرّع فيها المعاناة المريرة أنفاسا، جعلته يكتشف – من خلالها – طبائع الناس وأفكارهم على حقيقتها، إلى أن يعود بسبب الدعاء والتضرع للآلهة إلى طبيعته البشرية"[2].

---

[1] - مقاطعة يونانية

[2] - ينظر: لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، تر: عمّار الجلاصي، د تا، دط، نسخة PDF

حين يشعر " **أبوليوس**" إلى الحاجة في إثراء عمله الفني يستعين بالميثولوجيا مثل حكاية **"بسيشة"** الفتاة الجميلة وزواجها المحتوم بالوحش المغرور والشرس الذي يخشاه البشر ويرهبه الأرباب.

إنّ تواجد العناصر الأسطورية في رواية **الحمار الذهبي** لها دور في انعطاف مجرى الأحداث وفي تشكيل النص الروائي، الذي تفرضه العناصر الجمالية لأي عمل أدبي. فوظيفة الرسالة الجمالية لا تكمن في إيصال المعنى فقط؛ بل في القيمة التي تحملها في ذاتها[1].

رواية الحمار الأدبي حكاية أدبية تقليدية، لها أسلوب خاص في سرد الأحداث المتعلقة بالآلهة والجن والوحوش والبشر الذين يكسوهم ثوب الشرّ والممارسات السحرية التي تكسب الساحر قوى خارقة وعجيبة، وعلى غرار ذلك يوظّف **أبوليوس** الأسطورة المشبّعة بالحكايات التقليدية التي تلعب فيها الكائنات الماورائية أدوارَها الرئيسة[2].

فما يمكننا تمييزه في الرواية، إضافة إلى الأساطير التي حَوتها في متنها، أنّها نص أدبي يشبه الأسطورة، وذلك حينما يتحوّل البطل إلى حمار بالخطأ، وهذا التحوّل هو الفيصل الأساسي في القصة حيث تتحرك الشخصية البطلة وفق تغيرات بين المستوى الطبيعي وهو الإنسان، ومستوى ضدّ طبيعة الإنسان وهو التحوّل الأوّل؛ تحوّل **لوكيوس** إلى حمار.

هذا التحوّل ما هو إلاّ رؤية فنيّة يرصد فيها الكاتب طرق التفكير التي يتميز بها البشر آنذاك. فالأسطورة تضع الإنسان بكلّيته في مواجهة العالم وبجميع ملَكاته العقلية والحدسية، الشعورية واللاّشعورية، وتستخدم كلّ المجازات الممكنة من أجل تقديم رؤية متكاملة لهذا العالم، ذات "طابع كلاّني يعادل تجربة الإنسان الكلاّنية وغير المتجزئة معه"[3].

تعدّ الأسطورة من حيث شكلُها -كما سبق الذكر-قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي؛ من حبكة وعقدة وشخصيات، وغيرها من العناصر الأساسية التي تسهم في بناء دعائمها الفنية المتعارف عليها في النقد الحديث، إلاّ أنّها غالبا ما تكون

[1] - إيليا الحاوي، في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط 2 1986، ص 5

[2] - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص: 8

[3] - فراس السواح، المرجع نفسه، ص: 20

صياغتها في قالب شعري يساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية وتداولها مشافهة، كما يُكسبها نزعة روحانية تستجيب لها العواطف والنفوس، على خلاف النص النثري الذي يفتقر الى هذه الخاصيّة [1] .

إضافة إلى ذلك، ترتبط الأسطورة بنظام ديني معين، وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه. وهي تفقد كلّ مقوّماتها باعتبارها أسطورة، و"إذا انهار هذا النّظام الدّيني تتحوّل إلى حكاية دنيوية تنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الشبيهة بالأسطورة "[2].

3-الطابع السحري في الحمار الذهبي:

إنّ الطابع السحري للأسطورة وأثرها الفعّال في توصيل الأفكار المجردة، وتثبيت المعتقدات، يفسّر لنا تلك الوحدة المصيرية بين الدّين والأسطورة، فمادامت الأسطورة باعتبارها "ميلا ونزوعا تعمل كخميرة لكلّ أشكال التعبير الفني، وتضع بين أيدينا منظارا ملوّنا يعيد البهجة والمعنى إلى الحياة فإنّ باستطاعتنا الركون إليها باعتبارها مصدرا إيجابيا في إنتاج الثقافة واستهلاكها" [3] .

لمّا كان الخلق هو الفعل الأساسي الذي يشفّ عن عظمة الألوهة وجوهرها، فقد كان على الدّوام مهمّة يضطلع بها أعظم الآلهة شأنا، "فينتشل الكون من لجّة العماء، ويصنع النظام من رحم الهيولى"[4]، وما يجعل رواية **" الحمار الذهبي"** ذات طابع سحري يتواشج مع بنية الأسطورة هو اعتمادهما تيمة التحوّل.

يمكننا القول بأنّ عنصر الخلق في الرواية يتمثّل في التحوّل من هيئة إنسانية إلى هيئة حيوانية، فالرّواية تتأرجح بين ظلّ أنّها تقترب من الأسطورة لكنّها لا تكاد أن تكون كذلك، وظلّ آخر هو أنّها تكتفي باستعارات من الأسطورة.

إنّ رواية **الحمار الذهبي** تتألف على انزياحات كثيرة، حيث تنحرف عن الحكاية الرئيسة لتحكي قصصا قصيرة أخرى، كقصة الحب والنفس مثلا ضمن الرواية الطويلة. ومن ثمّ فإن رواية التحوّل، هي أيضا مجموعة قصصية مثل حكاية الخادم المُسن في مغارة القراصنة، وعن فتاة تحب الجن، وعن الإلهة **"إزيس"** التي تستحوذ

---

[1] - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص 12.

[2] - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص: 13.14

[3] - فراس السواح، المرجع نفسه، ص: 31

[4] - فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، سوريا، أرض الرّافضين، فراس السواح، ط 11 دتا، دار علاء الدين، دمشق.

على فكر أبوليوس، كلّ ذلك في أسلوب يتراوح بين الديني والأسطوري والميتافيزيقي والخرافي [1].

فجوهر الأسطورة لا يكمن في أسلوبها أو موسيقاها أو في بنيتها، ولكن في القصة التي تحكيها، "فالأسطورة لغة يتمّ تنشيطها عند مستوى مرتفع بشكل خاص وتتابع فيه المعاني بشكل يجعل الخلفية اللّغوية لها في حالة حركة دائمة" [2]، وهذا مازاد من رواية **"الحمار الذهبي"** طابعا أسطوريا سحريا، خاصة عندما ضمّنها حكاية **"بيسيشه"** و**"كيوبيد"**.

قد تعطي الأساطير الإنسان صورة كلّية عن الحياة وعن العالم الذي يعيش فيه، أو كما يقول **"مالينوفسكي"** "تزوّده بصكوك للنشاط الاجتماعي أو كما يقول **"ليفي شتراوس"** بنماذج منطقية تكون قادرة على قهر التناقضات التي يواجهها في الواقع [3]«ومثل هذه العناصر السحرية وغير المنطقية نجدها في الرواية متعددة المضامين، التي حوّلت النص الروائي من حالة الثبات والاستقرار إلى حالة التحولات.

3. لماذا التحوّل إلى حمار؟

تقوم بنية الرواية على ثلاث وظائف حكائية يسردها الكاتب في ثلاث رحلات بطلها **"لوكيوس"** الشخصية الرئيسة، والحدث الرئيس المتمثل في رحلة الفضول، ورحلة التحوّل، ورحلة الخلاص، أو التوبة والعودة إلى الهيئة الحقيقية الأولى وهي الإنسان.

قبل أن يتحوّل لوكيوس، كان شغوفا جدا لمعرفة طقوس السحر وطريقة التحوّل، وكان لحوحاً أيضا، لكنّه على الرغم من ذلك، كان يحتمل الفشل في أي لحظة، أمّا أن يبلغ به الأمر أن يقع في الخطأ، أي التحوّل إلى هيئة أخرى، لم يتوقعه أبدا، وصار خلاف ما طمع فيه. وفي النهاية، وصل **لوكيوس** بسب إصراره إلى ما كان يرغب فيه، حيث وجد مكان السحر الذي كانت تستخدمه زوجة " **ميلو**"، لكنّ المفاجأة التي غيّرت مجرى الرواية هي تحوّل البطل إلى حمار، وهذا ما جعله يتعجب قائلاً: **" أخذت أقلّب البصر ولا وسيلة للخلاص في أعضاء بدني، فلا أراني طيرا بل حماراً "**[4].

---

[1] - عبد اللطيف هسوف، مثقف أمازيغي، قراءة في رواية الحمار الذهبي الحوار المتمدن،2006-من الموقع الالكتروني www.ahewar.org تاريخ التحميل 8-02-2016.

[2] - كلود ليفي شتراوس، الأسطورة والمعنى، ترجمة: شاكر عبد الحميد، مراجعة: عزيز حمزة، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام، 1982، ص.6.

[3] - كلود ليفي شتراوس، المرجع نفسه، ص. 6

[4] - لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي: ص. 76

تبدأ الملامح الأسطورية من عتبة الرّواية التي تمثلت في العنوان **"الحمار الذهبي"**؛ فاختيار الحمار الذي وظّفه **"أبوليوس"** يعود إلى قدرته على التنقل وملازمته للإنسان. ممّا يسهلّ كتابة رواية، تعددّت مغامراتها، واختلفت أماكنها، وتحرّكت أحداثها بين البَشر والحيوان، إلاّ أنّ عمق أفكارها جعلها تحمل دلالة فلسفية.

يمثّل " الحمار في الدّيانة المصرية القديمة رمزا للحمق والشّر، بينما البومة في الميثولوجيا اليونانية الرّومانية طير أثينة **منيرفة** إلهة الحكمة في مقدمة مبادئ فلسفة الحق، وقد شبّه هيجل الفلسفة بطير **"منيرفة"** الذي لا ينطلق إلاّ في اللّيل، وفي إنجيل **متّى** شبّه الروح القدس بحمامة، وكذلك في التراث الإسلامي كرسالة الطير لابن سينا، ورسالة الطيور لأبي حامد الغزالي، وفريد **الدّين العطّار** يكنّي بالطير عن النفس، وفي القرآن الكريم عن الحكمة وتقترن بنفس المعنى في قصة الحمامة المطوقة في كليلة ودمنة"[1].

يستحضر **أبوليوس** في عمله الأدبي تجربة جديدة قامت على عناصر الأسطورة، ويبدو ذلك جليّا من وجهين: فأمّا الوجه الأوّل فهو التحوّل إلى حمار، وأمّا الوجه الثاني فهو المغامرة.

لماذا التحوّل إلى حمار؟، ذلك أنّ الحمار عاش مغامرات عدّة مَكّنته من معرفة سرّ الحياة ومعرفة الشيء الجوهري الذي يجمع بين سائر البشر.

حاول أبوليوس في روايته **"الحمار الذهبي"** الكشف عن حقيقة البشر، حيث اختار أن يكون التحوّل عكس رغبة البطل، الذي كان يسعى في التحوّل إلى طير؛ فالطير يمثل الحكمة، وأمّا الحمار فيمثّل الغباء والبلادة، لكن لوكيوس بطل الرواية كَشفَ عن سرّ البشر الخالص وهو في هيئة حمار، وهذا هو السر الكامن في بنية الأسطورة أنّها تكشف الحقيقة فقط عندما يتحقق فيها مبدأ الضد أو مبدأ المعاكسة أو مبدأ التناقض.

غاية التحوّل في رواية "الحمار الذهبي" كان منطلقه فلسفيا، ذا منطق أسطوري، فالفلسفة تنظر إلى الأسطورة " من نقطة استشراف عالية جدّا بحثا عن دلالتها الأعمق ومغزاها الأكثر غورا بالنسبة لحياة الإنسان، وعن النماذج التي تقدّمها لعلاقته بالعالم"[2].

[1] - من هوامش متن الرواية الحمار الذهبي، لوكيوس أبوليوس، تر: عبار الجلاصي، ص.76.

[2]- أليكسي لوسيف، فلسفة الأسطورة، تر: منذر حلوم، دار الحوار، ط 1، ص. 43.

حاول **أبوليوس** من خلال روايته "الحمار الذهبي"، تضمين أفكاره بمنطق الأسطورة للوصول إلى أعماق النفس البشرية، والتي سعى من خلالها إلى الكشف عن أسرار العالم بعناصر مختلفة وأحيانا متناقضة، فالطير لا يشبه الحمار، الطير يرمز للحريّة قبل أن يرمز للمعرفة والحكمة في حضارات مختلفة، أمّا الحمار رمز للبلادة، لكن أبوليوس ضمّن هذا الرمز منطق الكشف عن سرّ البشر الكامن في الخير والشرّ، والتخلّص من الشرّ أو التورّط في الشرّ يكون عن طريق التوبة والدّعاء، وهذا ما حدث مع لوكيوس في مناجاته للآلهة للتخلص من ورطته.

هذه الورطة التي مكّنت الكاتب "أبوليوس" من الخروج برؤية إنسانية فكرية لها بُعدٌ أسطوري في فهم السر الذي يجمع بين البشر، والجوهر الكامن في النفس البشرية خاصة وأنّ العنوان يحمل دلالة الذهب، والقيمة التي يحملها معدن الذهب في الارتقاء والتعالي على جميع المعادن، والحمار الذهبي من حيث العنوان أيضا يفتح بابا آخر للتساؤل في فهم القيمة الحقيقية لروح الإنسان والرغبات التي يحملها في دواخله.